تمثلات الديستوبيا في رواية الموت في وهران للحبيب السايح *

Dystopian representation in the novel "Death in Oran" by Habib Sayeh

د. الطاهر مسيلي

جامعة عبد الرحمن ميرة بجاية (الجزائر)، مخبر التأويل وتحليل الخطاب

tahar.messili@univ-bejaia.dz

ملخص:

يهدف هذا المقال إلى الكشف عن مدى تمكن الحبيب السايح في روايته "الموت في وهران" من رصد الحالة التي أصبحت عليها مدينة "وهران" بعد فترة التسعينيات الصعبة وما انجر عنها من آثار سلبية مست جميع نواحي الحياة.

خلصت هذه الدراسة إلى أن وضع هذه المدينة أصبح صعبا حيث فقدت قيمها النبيلة وذلك بتفشي مختلف مظاهر الانحلال الخلقي والفقر والاستغلال.

الكلمات المفاتيح: الديستوبيا، القيم المبتذلة، الموت في وهران، الحبيب السايح، الواقع.

Abstract:

This article aims to reveal the extent to which Habib Sayeh, in his novel "Death in Oran", was able to detect the state that the city of Oran has become after the difficult nineties period and the resulting negative effects that affected all aspects of life.

This study concluded that the situation of this city has become difficult due to the prevalence of various, as it has lost its moral values poverty and exploitation.

Keywords: Dystopia, Vulgar vlues, Death in Oran, Habib Sayeh, Reality.

1-مقدمة:

كان للرواية الحيز الأكبر في نقل الأوضاع السياسية المتأزمة التي عرفتها الجزائر في تسعينيات القرن الماضي، حيث استطاع كتابها بمهارة فائقة استيعاب «زمن الوقائع بصراعاته الحادة التي أحدثت هزة قوية في سلم القيم والأفكار، وهو ما يجعلنا نجزم أن الأزمة لم تكن أزمة واقع مرير فرضته المرحلة بقدر ما هي أزمة عقول يكاد تشكيلها من جديد، وذلك بصهرها في الدواخل والأعماق» [1].

تاريخ استلام البحث: 2024/12/25	تاريخ قبول البحث: 2025/03/21	تاريخ النشر: 2025/05/13

وتبعا للتحولات السياسية والثقافية التي شهدتها الجزائر مع مطلع التسعينيات وتصاعد موجة العنف والآثار السلبية التي نجمت عنها، تحول اهتمام الكتاب إلى التعبير عن الوضع الراهن والأزمة المتشعبة التي ضربت الجزائر مما أدى إلى ظهور شكل روائي جديد شبيه بالنص الصحفي الذي يسرد الوقائع كما هي عليه.

والملاحظ أن "الحبيب السايح" لم يتوقف عند تصوير هذه الأزمة، بل راح يعرض الآثار السلبية التي نجمت عنها فيما بعد وهذا ما تجلى في روايته " الموت في وهران" التي تعرض صورة الجزائر بعد خروجها من العشرية السوداء وما نجم عنها من آثار سلبية أرهقت كاهل مجتمعها.

تقوم إشكالية هذه الدراسة في الإجابة عن جملة من الأسئلة أهمها: كيف تم تصوير حال "وهران" انطلاقا من الوضع المتأزم لأبطال هذه الرواية؟ وهل تم فعلا تعرية هذا الواقع المزري وملامسة كل جوانبه التي تعبر عن الصدمة من الواقع المرير الذي أدى إلى انهيار القيم النبيلة التي يتميز بها مجتمعنا؟ وماهي الأدوات التي استخدمها الروائي بغية مقاربة هذا الواقع المهزوز؟

يكمن الهدف من وراء هذا العرض في الكشف عن خبايا ربط مدينة "وهران" الصاخبة بالموت نتيجة الصدمة من واقعها الذي أصبحت عليه.

2-العنوان رمز للبكاء على الحاضر

يتركب عنوان هذه الرواية من ثلاث كلمات هي: (الموت-في-وهران)، وتدل مفردة "الموت" كما هو معروف على السكون. أما "في" فقيل عنها بأنها «تأتي بمعنى الوسط، وتأتي بمعنى داخل، كقولك: عبد الله في الدار، أي داخل الدار، ووسط الدار، وتجيء في بمعنى على. وفي التنزيل العزيز: لَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ، المعنى على جذوع النخلِ. وقال: ابن الأعرابي في قوله: وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا، أي معهن. وقال ابن السَكيت: جاءت في بمعنى مع...وقال القراء في قوله تعالى: يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ، أي يُكَثِّرُكُمْ بِهِ...وقال الجواهري: في حرف خافض وهو للوعاء والظرف، وما قدَر تقدير الوعاء...وربما تستعمل بمعنى البناء...ابن سيدة في حرف جر، قال سيبويه: أما في فهي للوعاء» [2]. واستعملت في عنوان هذه الرواية بمعنى دخل ووسط.

وفيما يخص "وهران" فهي تعد ثاني المدن الجزائرية من حيث تعداد سكانها، تقع غرب العاصمة بمسافة تقدر بحوالي (432 كلم)، تلقب بالباهية نظرا لجمال شواطئها التي تستقبل وفودا هائلة من السياح الجزائريين والأجانب بحثا عن الترفيه والاستجمام. كما تميز أيضا بتنوع مبانيها ذات الطراز المعماري الرفيع الذي يجمع بين ما خلفه الاستعمار وما أنجزته الأيادي الجزائرية في الاستقلال، إضافة إلى ذلك احتوائها على معالم أثرية صوفية، أبرزها ضريحي سيدي الهواري وسيدي عبد القادر اللذين مازالا قبلة للعديد من زوارها طلبا للبركة والشفاء من الأمراض. كما يعتبر مركزها شاهدا تاريخيا لأشهر المعارك

التي خاضعها الأمير عبد القادر ضد العدو الفرنسي المسماة بمعركة خنق النطاح –ساحة الأسلحة حاليا- . وعموما هذه المدينة تعرف بصخبها الدائم طوال السنة، خاصة في فصل الصيف، فهي مفعمة بالحياة والحركة نهارا وليلا.

يقصد من هذا العنوان أن "الموت" أصبح يخر كل أرجاء وهران؛ بل هو موجود بداخلها يسكنها نتيجة تغير الوضع فيها من الإيجاب إلى السلب بشكل سريع ومفاجئ، وذلك بفعل ما تعرضت له من إرهاب ومن مسخ وانحلال وتفسخ في قيمها الإنسانية النبيلة التي كانت تحكمها فخفت بريقها وانعدمت جاذبيتها لدرجة أن الحياة أن الحياة فيها أصبحت مخيفة، وعم الحزن فيها على ماض كان كله بهجة وإقبالا على الحياة.

أما فيما يتعلق بالجانب التركيبي والنحوي لهذا العنوان فهو يتكون من كلمة "الموت" وهي اسم معرفة مفرد مذكر، " حرف جر، و"وهران" اسم معرفة، و"علم" مفرد مؤنث يدل على مدينة. وبذلك يكون هذا العنوان جملة اسمية تدل على السكون والثبات وعدم تغير الوضع؛ بل زاد سوءا أكثر مما كان عليه سابقا. ويمكن إعراب هذه الجملة على الشكل الآتي:

الموت: خبر لمبتدأ محذوف تقديره " هو الموت".

في: حرف جر.

وهران: اسم مجرور بـ "في" وعلامة جره الفتحة نيابة عن الكسرة لأنه ممنوع من الصرف للعلمية وزيادة الألف والنون.

وتجدر الإشارة إلى أن لفظ الموت مصدر، وهو الصيغة الاسمية الدالة على الفعل "مات"، إلا أنها تفوقه على عموم الحدث وتمامه لعدم اقترانها بالزمن. وتم اختيار هذه المفردة تحديدا من طرف الروائي لبيان استحالة العيش في هذه المدينة بسبب الفوضى وفقدانها لحركتها.

وإذا ما ألقينا نظرة على الأصوات المشكلة لهذا العنوان فإننا نجده يتكون من عشرة أصوات أغلبها مجهورة، وهي: (الألف مكرر مرتان-اللام-الميم-الواو مكرر مرتان-الياء-الراء-النون)، وكلها تدل على القوة من شدة الفاجعة الأليمة التي لحقت بمدينة وهران نتيجة فقدانها لصورتها المشرقة التي عرفت بها. أما بقية الأصوات المتمثلة في (التاء-الفاء-الهاء) فهي مهموسة تدل على الضعف والجمود والاستسلام أمام الواقع المرير لهذه المدينة.

نستنتج بأن عنوان هذه الرواية يحمل دلالات سيميائية مكثفة بالمعاني تشير أغلبها إلى البكاء على حاضر "وهران" انطلاقا من عرض وتصوير ما آل إليه وضعها نتيجة الفساد الذي حل بها بمختلف أشكاله، وذلك بفعل انزياح أبنائها عن مقوماتهم الخلقية التي عرفوا بها، فلا شيء أصبح يدعوا إلى التنبؤ بمستقبل أفضل بسبب عدم الشعور بتحمل المسؤولية واحترام الآخرين.

3-الشخصية بين المعاناة والأمل

تنوعت الشخصيات في هذه الرواية وكلها مستمدة من الواقع الاجتماعي، ويمكن تصنيفها كالآتي:

3-1-الشخصية الانتهازية

يمثل هذا النوع من الشخصية رجال السوء وهم (كبابة، نوار، عبد الجبار معموري، عاشور بونعايم) وجميعهم يغرقون في بحر الفساد الأخلاقي والرذيلة يفتكون بكل ضحية رماها القدر بين أيديهم القذرة فهم رمز للانحطاط الخلقي الذي شهدته المدينة عقب الأزمة.

3-2-شخصية المثقف

تظهر شخصية المثقف في رواية "الموت في وهران" ممثلة في "عبدقا النقريطو" الذي كان يشغل منصب عامل تقني في مسرح وهران قبل أن تتأزم بها الأوضاع في التسعينيات. ربطته ببطل الرواية علاقة صداقة قوية، إذ قدم له يد المساعدة في الكثير من المرات لعل أهمها لعبه دور ولي أمره لما كان يدرس بالثانوية، ووقوفه إلى جانبه لما توفيت والدته.

يرمز هذا الشخص للإنسان الحالم بتحقيق الأخوة ومساعدة المسحوقين من المجتمع عن طريق تسخير معارفها العلمية لصالحهم.

3-3-الشخصية الدينية

تتجسد هذه الشخصية في والد "هواري" الملقب بـ"معمر الصفصاف" الذي لم يأخذ ذكره حيزا كبيرا في الرواية، وما ينسب له أنه كان ينتمي إلى جماعة إسلامية مسلحة، ارتكب جريمة قتل في حق مدير مدرسة ابتدائية تم على إثرها مباشرة رميه بالرصاص من طرف قوات الأمن ليلفظ خلالها أنفاسه الأخيرة.

3-4-الشخصية الانهزامية

تتجلى معالم هذه الشخصية في "هواري " الذي يشبه إلى حد ما "أوديب" نظرا لحجم المعاناة التي عرفها في حياته منذ طفولته إلى أن صار شابا يافعا، فبمجرد التحاقه بالمدرسة الابتدائية وهو في سن السادسة من عمره فقد والده نتيجة إطلاق سيل من الرصاص على جسده من طرف قوات الأمن، وذلك إثر قتله لمدير المدرسة الابتدائية، ليعيش بعدها "هواري" حالة نفسية صعبة، فكل التلاميذ الذين كانوا يدرسون معه ينعمون بعطف الأبوة وحنانها إلا هو «كانت غيبة أبي اليد التي كفأت فوق رأسي صحن مرارتي. فإني لا أدري كيف كنت، خلال ست سنين، أنظر بلا خجل في عيون من يعرفون واحدا مثلي، لم يروا له والدا يوما؛ من جيراني خاصة الذين كنت أقاسمهم الطريق إلى المدرسة. ولا علمت ما الذي كان حال دون بعضهم، ممن كانوا اقتربوا مني، أن يسألني عن ذلك، قبل أن أكتشف

في مرآتي بعد سنين أن في ملامحي انقباضات شراسة عميقة فعلا...»[3] ، لذلك نجده يعبر عن حنينه واشتياقه لوالده فصورته لم تفارق مخيلته أينما تواجد.

ولما انتقل إلى المتوسطة بدأ شعوره يتنامى بالانتقام من كل من يتعرض له نتيجة إحساسه بظلم الحياة.

وعند التحاقه بالثانوية واصل نفوره من الدراسة، إلا أنه وعلى الرغم من كثرة غياباته استطاع الحصول على شهادة البكالوريا التي فتحت له الطريق للالتحاق بكلية الحقوق بجامعة السانية بوهران، لكنه سرعان ما لبث أن أثار فيها المشاكل مرة أخرى، إذ تعرض للطرد بسبب إهانته لأحد أساتذته، وهذا ما سبب ألما كبيرا لأمه.

وما حز في نفسه أكثر حالة الفقر المدقع التي كان عليها، وهذا ما دفع بوالدته للخروج إلى العمل وإصابتها هناك بمرض فقدان المناعة ومطالبتها له بضرورة الاعتماد على نفسه، لأنها مريضة دون أن توضح له طبيعة مرضها الذي اكتشفه هو فيما بعد.

وبعد فقدانه لأمه اكتشف بأنه جاء إلى هذه الدنيا نتيجة علاقة غير شرعية ليكتب له القدر بأنه في مختلف عن البشر في كل شيء.

عانى "هواري" بعد رحيل أمه من الضياع والحزن والكآبة لينتهي به الأمر إلى السجن بعد اتهامه بقتل "حسنية" التي وجدت في شقته جثة هامدة، وبعد خروجه منه فقد صديقته "بختة الشرقي" التي قررت الذهاب إلى باريس لإتمام لدراستها، ليعيش في نهاية المطاف في عزلة تامة عن الناس ما عدا "عبدقا النقريطو" الذي صار بمثابة والده.

3-5-شخصية المرأة بين الصمود والانهيار

مثل العنصر النسوي في رواية "الموت في وهران" أم "هواري" "وهيبة بوذراع" التي تزوجت من والده بطريقة غير شرعية، وهي في نص الرواية تمثل المرأة الفقيرة التي قهرتها ظروف الحياة بسبب وفاة زوجها، كما تعتبر أيضا رمزا لكفاح الأم في سبيل الحفاظ على حياة أبنائها، إذ لجأت إلى العمل بأبسط الأثمان لضمان مستقبل "هواري" خاصة الدراسي منه، لكنها في النهاية وقعت في المحرمات التي كانت سببا في وفاتها. ويشكل رحيلها منعرجا خطيرا في حياة البطل هواري، إذ بفقدانها أصبح وحيدا يتخبط في الحزن ولا يعرف حتى التصرف في أموره لينتهي به الأمر إلى ارتكاب جريمة قتل أودع بسببها السجن.

وتعتبر "حسنية" سبب كارثة دخول "هواري" السجن، هذه الفتاة اسمها الحقيقي "نسيمة وزاني" ولدت في مدينة "سيدي بلعباس"، ولما تحصلت على شهادة البكالوريا تقدم إليها طالب بكلية الطب يدعى "عبد الجبار معموري" بطلب الزواج منها، لكنها رفضت بحجة رغبتها في مزاولة دراستها فقام

باغتصابها لتنقلب حياتها فيما بعد رأسا على عقب كلها تعاسة، إذ أصبحت تقتات من الملاهي الليلية كمغنية للمنحرفين خلقيا، وهناك تعرفت على "نوار مصمودي" وهو ابن لتاجر ثري يملك سيارة ومسكنا خاصا معتقدة أنه سيحل كل مشاكلها غير أنها في النهاية صدمت بموقفه منها بأنها مجرد باغية. لتلتقي بعدها بـ"هواري" الذي آواها في منزله مقيما معها علاقة جنسية هناك انتهت بوفاتها عنده فاتهمته الشرطة بقتلها، لكن لحسن حظه تم إطلاق سراحه لعدم ثبوت الأدلة الكافية لارتكاب الجريمة.

وعلى النقيض من "حسنية" نجد "بختة الشرقي" ابنة مفتش الشرطة المدعو بـ"الروجي" الذي قضى على "معمر الصفصاف" والتي درست مع "هواري" وبادلته شعور المحبة مقدمة له يد المساعدة في الكثير من المواقف، فهي التي كشفت له عن طبيعة الأعمال التي تمارسها المجموعات الإرهابية التي كان والده فردا منها. كما أنها لم تتوان في عرض مساعدتها له في الدراسة لأنها كانت على علم بظروفه الاجتماعية والمادية السيئة.

أخيرا يمكن القول بأن الشخصيات التي وظفها "السايح" في روايته هذه أغلبها مستمدة من واقع المجتمع والظروف المحيطة به، وهذا قصد إيهام القارئ بحقيقة ما يكتب.

4-الزمن كمعادل للضياع والصدمة من الواقع

عند قراءتي لهذه الرواية اتضح لي زمن وقوع أحداثها بشكل واضح، كما لاحظت فيها تداخلا بين الأزمنة الثلاثة الماضي، الحاضر والمستقبل، إلى جانب نزوع الزمن في بعض الأحيان إلى الحلم وارتباطه بالوضع النفسي للشخصيات، وهذا يكشف لنا عن مدى تحكم ومهارة الروائي "الحبيب السايح" في التلاعب بتوظيف واستخدام هذه التقنية. بناء على هذا قمت بتقسيم الزمن إلى واقعي، أي ما هو متعلق بحدوث الأفعال فعلا، وآخر فني تداخل فيه الماضي، الحاضر والمستقبل، وأخيرا إلى زمن نفسي.

4-1-الزمن الواقعي

يتجلى هذا النوع من الزمن في تصوير ما آلت إليه الأوضاع في مدينة وهران كأنموذج عن الجزائر عامة بعد فترة التسعينيات، هذه المرحلة التي اتسمت بالمعاناة من الفقر ، والتي تمثلها في الرواية "أم هواري" التي لم تجد من يساعدها فقررت الخروج للعمل لسد مستلزمات أسرتها الصغيرة، ورغم حصولها على منصب شغل فهي لم تتمكن من العيش في منزل منفرد خاص بها إلا بعد مرور مدة من الزمن، فالجماعة الإسلامية هي التي ضمنت لها ذلك «أذكر هذا، لأن حنين طفولتي لا يزال يهصرني إلى مدرستي الأولى في حين اللوز (ليزامنديي، سابقا) حيث كنا نسكن بالكراء في حوش مشترك قبل انتقالنا إلى بناية، أقمنا في غرفتين منها مطبخ وحمام في الطابق السفلي، واقعة في حي سيدي الحسني (صناناس، سابقا)»[4]. ولما مرضت لم يكن لديها ما يكفيها من مال، لذلك طلبت من ابنها "هواري"

الاتصال بمدير عملها إن اقتضى الأمر ذلك. وعقب وفاتها لم تترك سوى صندوق معدني يحوي أشياء بسيطة مثل ملابسها وبعض الحلي التي اشتراها لها زوجها

ونجد أيضا من نتائج الفقر استفحال ظاهرة الانحلال الخلقي التي سيطرت على الرواية، فسبب وفاة والدة "هواري" "وهيبة بوذراع" يعود أساسا إلى ممارستها للفاحشة التي أدت بها إلى الإصابة بداء فقدان المناعة المكتسبة.

تظهر أيضا صورة صاحبة الاسم المستعار "حسنية" التي غادرت المنزل بلا رجعة رافضة فكرة إرغامها على الزواج من "عبد الجبار معموري" الذي حاول والدها فرضه عليها للتخلص منها طاعة لأوامر زوجته الجديدة بعد وفاة أمها، وكانت نهايتها أن لحقها خطيبها المزعوم إلى الجامعة في وهران مدعيا بأنه تاب وسيتركها تكمل دراستها، داعيا إياها إلى شقتهما التي سيقيمان فيها، وهناك قام بفعله الشنيع معها، وبذلك قضى على شرفها، بل على حياتها فأصبحت بذلك متشردة في الملاهي مع أصدقاء السوء، لتتخذ بعدها من شقة "هواري" مكانا يأويها برفقته. وكانت كثيرا ما تحدثه عن علاقتها بـ "نوار مصمودي" الذي اكتشفت بأنه مدمن على الخلاعة.

كما يتجسد أيضا الفساد الأخلاقي في شخصية "عاشور بونعايم" المزدوج الوجه، الذي ألحق الأذى بأم "هواري" إذ كان سببا مباشرا في وفاتها، وذلك بممارسة الجنس معها ليحاول بعدها التكفير عن ذنبه بعرض منصب شغل في شركته على ابن ضحيته، ولم يكن هدفه الحقيقي مد يد المساعدة له بقدر ما كان اقتناص ضحية أخرى مثل أمه مستغلا ثراءه الفاحش ومعتقدا بالمال يشتري كل شيء.

تتجلى إلى جانب هؤلاء جميعا شخصية "خصر البومة" ذو السوابق العدلية لتعديه على قاصر وترويجه للمخدرات. هذا المجرم صاحب البطن المنتفخ والرائحة الكريهة، سبق لـ "هواري" وأن تشاجر معه وإسقاطه.

يعتبر بطل الرواية "هواري" الصورة الحية للزمن الواقعي لهذه الرواية، إذ اجتمع فيه الفقر والانحراف معا، ولولا والدته لما تمكن من الوصول إلى الجامعة، ولا كان له حتى منزلا يأويه، لأنه فقد والده وهو صبي صغير دون أن يترك له شيئا. وعلى الرغم من أن ظروف الحياة كانت كلها ضده إلا أنه كان بإمكانه أن يكون إراديا ومكافحا خاصة في دراسته، وأن يحس بمدى كفاح أمه من أجله، لكنه على العكس من ذلك كان متسيبا في مختلف المراحل الدراسية التي مر بها، منتهيا به الأمر إلى الطرد من الجامعة، مسببا ألما كبيرا لأمه التي كانت تأمل في أن يضمن مستقبله.

ولم يقتصر تسيبه هذا في مجال الدراسة فقط، بل تعداه إلى إقامة علاقات مع أشخاص مجرمين منبوذين من المجتمع كـ "خصرو البومة" إضافة إلى إوائه في مسكنه لـ"حسنية" التي لا يعرفها وارتكابه للمعاصي معها، وارتياده فيما بعد للملاهي الليلية ليصبح في النهاية عربيدا.

أخيرا انتهى به المطاف إلى دخول السجن ثلاثة أشهر بتهمة قتل "حسنية"، وهذا لعدم ثبوت الأدلة الكافية في ارتكابه للجريمة.

نخلص في النهاية إلى إن الزمن الواقعي في هذه الرواية ارتبط بحالة الفراغ والضياع التي عرفتها مدينة وهران بعد الفترة الدموية التي نجم عنها تخلي أناسها عن قيمهم التي كانت تتحكم فيهم وبروز الانحلال بمختلف مظاهره وأشكاله.

4-2-الزمن الفني

بنيت أحداث رواية "الموت في وهران" على الماضي الذي ينقسم إلى بعيد يعيدنا لزمن الثورة المسلحة وآخر قريب يحيل إلى العشرية السوداء وما بعدها. وفيما يخص الأول فهو لا يحتل حيزا كبيرا في النص، بل كان مجرد ومضات فقط تدل على استبسال الجزائريين وشجاعتهم، وهذا ما يتجلى في حديث "مصطفى" صديق جد "هواري" من أمه عن كيفية قضائه على أحد الضباط الفرنسيين والدور الذي لعبته جدة "هواري" في حمايته.

أما الماضي القريب فنجده يستحوذ على معظم أحداث الرواية خاصة المتعلقة بحياة بطلها "هواري" بداية من دخوله المدرسة الابتدائية لأول مرة، مرورا بوفاة والده، وتمرده في المتوسطة فالثانوية، ثم طرده من الجامعة، فذكر مرض والدته ورحيلها للأبد، وأخيرا دخوله للسجن وخروجه منه.

وهكذا فإن الزمن الماضي في "الموت في وهران" ارتبط بحالة ضياع بطلها وبمعاناته في التكيف مع واقعه وانهزامه أمامه.

يعبر الحاضر عن وضعية هواري بعد خروجه من السجن، فالحزن والكآبة، والندم يسيطرون عليه مُؤثرا تجنب إقامة علاقات مع الناس «شيء مثل الحزن، كالكآبة، مثلهما معا، يسيطر عليَ الآن...حنيني يثور إلى أجواء مدرستي الغائمة...وها إني أسمع، كما غالبا، رنة جرس باب جاري المقابل، كأنه عندي. لم يعد ذلك يثيرني. فمنذ عام كنت عطلت الجرس فاسترحت أيضا من إزعاج النساء...فإني لم أعد أفتح الباب لأحد غير عبدقا النقريطو في أوقات نتواعد عليها لنخرج عشية الخميس إلى بار التيتانيك ومنه إلى الكورنيش أو إلى الميلومان لنسهر» (5).

اتسم المستقبل في هذه الرواية بالغموض أمام المصير المجهول الذي ينتظر بطلها "هواري" بعد أن فقد أهدافه في الحياة، فهو لا يدري ما الذي سيفعله.

ارتبط ما يسمى بالحلم بـ "بختة الشرقي" الإنسانة الوحيدة التي بقيت لـ "هواري" بعد رحيل والدته وخروجه من السجن والتي يشعر بالراحة في ظل وجودها معه «فإنه شغلني، حد أن شعرت أني لم أحتفظ بجملة واحدة من قراءاتي عشرات الصفحات، إن كنت سأجد بختة الشرقي في انتظاري...فقد

كنت وقفت على رصيف النزول... كأني أراها الآن، لوقفتها الثابتة كما في حال استعداد. كانت بشعر أسود مسرح إلى أسفل على كتفيها، في بدلة بنفسجية استوعبت تفاصيل جسدها القويم...» [6].

لكن توهمه هذا كان مخطئا، فالسيدة التي كانت بانتظاره لم تكن سوى سكريتيرة والد "بختة الشرقي".

4-3-الزمن النفسي

يحيل هذا الزمن على بطلها "هواري" وما أحاط به من مآس أهمها أنه كان نجل رجل مجرم سيء السمعة الأمر الذي سبب له الإحراج في مواجهة زملائه في المدرسة «فبأي شعور كنت سأواجه أحدهم، بنتا كان أو ولدا؟ وإن لقيتهم، فبأي ملامح؟ ما الذي كنت سأقوله؟ أطلي جسدي بطين الفجيعة وأصرخ: "أبي ظالم!" فكذلك همستها لبختة الشرقي، مسكونا بصورة يتم أبناء مدير مدرستي بترمل أمهم. فإنهم كانوا، لحظتها، تظاهروا في ذهني فعلا» [7].

وتمثلت الفاجعة الثانية في فقدانه لأمه وإدراكه لأهميتها في حياته، بل حتى ندمه على عدم اتباع نصائحها خاصة فيما يتعلق بالدراسة.

وكانت الفاجعة الثالثة متمثلة في اتهامه بارتكاب جريمة قتل ودخوله على إثرها السجن لمدة قصيرة، ثم خروجه منه إلى عالم رأى فيه نفسه وحيدا حزينا.

في النهاية يمكن القول بأن الزمن النفسي في هذه الرواية قد تحكم فيه الماضي بثقله التاريخي والسياسي والاجتماعي، بما فيه من بطولات واضطهاد وظلم ومآسي، وظل هذا الماضي يشكل مرحلة حاسمة ومهيمنة في وعي الشخصية النفسي، وعن طريقه استطاعت إعطاء قيمة مادية ومعنوية لحاضرها الداخلي والخارجي، غير أن رؤيتها للمستقبل بقيت غامضة.

يبدو أن الروائي استفاد إلى حد كبير من تقنيات الرواية الحديثة، كتوظيفه للتداعي والتذكر، وظهر ذلك في المدى البعيد من خلال استحضار بعض الوقائع أيام الثورة، وهو ما تجسد على لسان جد "هواري" الذي استرجع بطولاته يوم كان مجاهدا في صفوف جبهة التحرير الوطني، إذ تمكن من القضاء على أحد الضباط الفرنسيين الأكثر جرما. أما فيما يخص مداه القريب فتعلق بذكريات "هواري" المرتبطة بمساره الدراسي وبمقتل والده، ووفاة والدته.

5-المكان بين الإحباط والانحلال

تنوعت الأماكن في هذه الرواية وتعددت، وهي ذات حضور حقيقي تحيلنا على مدن جزائرية بعينها، ركز فيها الروائي على نوعين من الأماكن المتناقضة، يمكن عرضها على الشكل الآتي:

5-1-أماكن مفتوحة

5-1-1-قهوة الوداد: "توجد في حي "ابن أحمد الهواري" (أوزانام سابقا)، كان يرتادها البسطاء من الناس إضافة إلى كبار السن. كان فيها "هواري" يلتقي بـ"عبدقا النقريطو" الذي صار صديقا مفضلا له، خاصة بعد ضربة له أمام الناظر نتيجة تغيبه واعتذاره له فيما بعد مؤكدا له بأنها مجرد تمثيلية.

وبعيدا عن أجواء ثانوية "لطفي" التي كان يدرس بها "هواري" وما تسببت له من قلق حاول "النقريطو" أخذه إلى زمن الثورة، حيث بين له بأن هذا المكان الذي يجلسان فيه هو رمز تاريخي للمنطقة الموجود فيها ليحدثه بعد ذلك عن حلمه في المسرح الذي تبخر برحيل الفنان المسرحي القدير "عبد القادر علولة".

هكذا نجد حضور المقهى في هذه الرواية يأخذ مسارا آخر بعيد عن هموم البطل ومشاكله ليسبح في التاريخ وحياة العامة من الناس، والفكاهة وفي عرض مشاكل الآخرين.

5-1-2-الشقة: تحضر الشقة بمثابة متنفس للبطل "هواري"، ويظهر ذلك من خلال ممارسة نزواته الجنسية مع "حسنية" وفي محاولة التخفيف عن أوجاعها حيث كانت تجد راحتها لدى "هواري" أثناء تواجدها معه في شقته، إذ أفشت له بكل أسرار حياتها خاصة المتعلقة منها بولوجها عالم المجون، فكثيرا ما أكدت له بأن والدها كان العامل الأساسي وراء حالة الضياع التي أصبحت عليها الآن، متبرئة من أبوته لها، فلا وجود في حياتها سوى لأمها التي رحلت عنها للأبد.

بالمقابل كان "هواري" يقتنص الفرصة أثناء مواساته لها بالتعبير عن ذاته بطريقة غير مباشرة «كسرت صمتي: "يحدث كثيرا أن يخطئ آباؤنا في حقنا"...» [8]، إشارة منه إلى ما ارتكبه والده في حقه إذ صار من بعد وفاته منبوذا لدى بعض الناس، كما أن حياته وحياة والدته حولهما إلى شقاء من بعد موته.

وعموما فإن هذه الشقة في صورتها العامة ارتبطت بالتعبير عن ظلم المحيط الاجتماعي خاصة الأسري منه، وذلك بعدم مبالاة الوالدين بمصير أبنائهما.

5-1-3-الملهى: يظهر الملهى الليلي تحت مسمى "الميلومان، تأتي إليه شرائح مختلفة من المجتمع قصد التسلية واللهو.

شكل هذا المكان بالنسبة لـ "هواري" ملجأ للبحث عن السعادة التي افتقدها، وذلك بسماع أغاني الراي المتنوعة وبمشاهدة "حسنية" وهي ترقص على أنغامها، وبشربه للخمر الذي رأى فيه حلا لنسيان همومه.

وعلى الرغم من محاولته الفرار من آلام فراق والدته، لكنه وبمجرد سماعه في هذا الملهى لأغنية "أميمتي أنا" سرعان ما يتذكرها.

أخيرا يمكن القول: بأن "هواري" لم يستطيع إيجاد المكان المناسب له للتخفيف عن أحزانه، فبدل أن يلجأ إلى أماكن أخرى حيث يتواجد صفوة المجتمع وخيرته الذين بإمكانهم مساعدته في أزمته النفسية تدريجيا، وضع نفسه في جحيم المنحطين أخلاقيا، وهذا يدل على أن طريقته في معالجة وتسيير أموره الشخصية ما زالت سلبية، وأن نضجه ووعيه الفكري ما زال محدود جدا.

5-2-أماكن مغلقة

5-2-1-المؤسسات التعليمية: شكلت المؤسسات التعليمية التي درس فيها "هواري" حيزا مغلقا بالنسبة له، بداية من المدرسة الابتدائية حتى الجامعة، حيث لم يجد فيها راحته النفسية، فأثناء التحاقه بالمدرسة الابتدائية بـ "حي اللوز" (ليزاماندي)، كان يحس بالفقر مقارنة بزملائه، فهو يذكر بأنه لم يكن لديه حتى ما يلبسه لهذه المناسبة «كنت لا أحمل محفظة ولا ألبس مئزرا. فإنه اليوم الأول الذي استعرض فيه التلاميذ، جميع التلاميذ ملابسهم...» (9). لتزيد معاناته أكثر بفقدانه لوالده، فكل التلاميذ الذين كان يدرس معهم يتمتعون بنعمة الأبوة إلا هو.

وعند انتقاله إلى مرحلة التعليم المتوسط في إكمالية "عقبة" بـ"صناناس" أحس فيها بغربة شديدة وصفها بأنها أكثر من السجن نتيجة تعرضه للعنف الجسدي من طرف زميله. وعلى الرغم من استرجاع كرامته في النيل منه إلا أن هذه الحادثة أثرت عليه سلبا في مقاعد الدراسة معلنا التمرد على نظام هذه الإكمالية.

وبفعل تعرضه للضرب من طرف المستشار العام بحجة دخوله المتأخر وهو ما لم يكن صحيحا إطلاقا، بدأ كرهه يزداد له شيئا فشيئا لأنه أحس بظلمه، منتظرا تعمد ضربه له مرة أخرى حتى ينتقم منه.

أما سنواته الثلاثة التي قضاها في ثانوية "لطفي" فقد سيطرت فيها الكآبة على نفسيته مما اضطره إلى تكرار غياباته بافتعال حجج لا صحة لها. وفيما يخص الجامعة فبقاؤه فيها لم يستمر طويلا إذا سرعان ما طرد منها في سنته الأولى بسبب اعتدائه على أستاذه في مادة القانون الدولي الدكتور "قدور بن حوار" بعد إهانته له أمام زملائه في المحاضرة.

أخيرا يمكن القول بأن "الحبيب السايح" تناول بالتصوير والتشخيص عدة أماكن متعارضة فيما بينها، تحمل دلالات ورموز فنية نابعة من رؤيته لواقع مدينة وهران بعد صدمة العشرية السوداء وما خلفته من آثار سلبية.

6-خاتمة

خلصت هذه الدراسة إلى أن مظاهر الديستوبيا في رواية "الموت في وهران" تمثلت في ثلاث أشياء هي كالآتي:

1-الفقر، مثلته الأرملة "وهيبة بوذراع" والدة "هواري" التي لم تجد من يمد لها يد المساعدة فخرجت للبحث عن العمل الذي كان سببا في نهايتها.

2-الضياع، جسده "هواري" الذي لم يعرف كيف يتعامل مع ظروفه البائسة، فبدل أن يجتهد في الجامعة ويحصل على الشهادة لمساعدة والده انتهى به الأمر في السجن. كما تحضر أيضا شخصية "حسنية" التي قهرتها ظروف الحياة الأسرية الصعبة، إضافة إلى خطيبها الذي دمر حياتها نهائيا، إذ اعتزلت الجامعة لتصبح مغنية في الملاهي.

3-الاستغلال، مثله الرجل الثري"عاشور بونعايم" الذي كان سببا في النهاية المأساوية لحياة " وهيبة بوذراع".

4-الانحلال الخلقي، وهو سمة مشتركة بين جميع الشخصيات السابق ذكرها، إضافة إلى" خصر البومة" وخطيب "حسنية".

بعد كل هذا يمكن لنا القول: بأن مظاهر الديستوبيا في رواية الموت في وهران ارتبطت بفقدان المجتمع لقيمه الإنسانية النبيلة.

-الهوامش:

(1)- عبد اللطيف حني، الرواية الجزائرية بين الأزمة وفعالية الكتابة، أعمال الملتقى الوطني الثاني في الأدب الجزائري بين خطاب الأزمة ووعي الكتابة، (16/ 17مارس 2009) معهد الآداب واللغات، قسم اللغة العربية وآدابها، المركز الجامعي الوادي، مطبعة مزوار، الجزائر، (2010)، ص(14).

(2)- ابن منظور: لسان العرب، (مج15)، دار صادر، بيروت، لبنان، (دط)، (دت)، ص(168).

(3)-الحبيب السايح، الموت في وهران، دار العين، القاهرة، مصر، (ط1)، (2014)،ص(31). ص(15- 16).

(4)-المصدر نفسه: ص(23).

(5)-المصدر نفسه: ص(172- 173).

(6)- المصدر نفسه: ص(170).

(7)-المصدر نفسه: ص(108).

(8)- المصدر نفسه: ص(80).

(9)-المصدر نفسه: ص(12).

8-المصادر والمراجع:

8-1-المصادر

1-الحبيب السايح، الموت في وهران، دار العين، القاهرة، مصر، (ط1)، (2014).

8-2-المراجع

8-2-1-القواميس:

1-ابن منظور: لسان العرب، (مج15)، دار صادر، بيروت، لبنان، (دط)، (دت).

8-2-2-الملتقيات:

1-عبد اللطيف حني، الرواية الجزائرية بين الأزمة وفعالية الكتابة، أعمال الملتقى الوطني الثاني في الأدب الجزائري بين خطاب الأزمة ووعي الكتابة، (16/ 17مارس 2009) معهد الآداب واللغات، قسم اللغة العربية وآدابها، المركز الجامعي الوادي، مطبعة مزوار، الجزائر، (2010)